الفصلُ الثّالث

الاستعدادُ للمعْركة الفاصِلة

- مِن الشواهد التاريخيّة الثابتة أنّ المعارك التاريخيّة الفاصلة التي أنهت وجودَ المحتلّين، وكسرت شوكتَهم سبقها إعدادٌ طويل وتخطيط محْكَم.

- هذا التخطيطُ والإعداد يُبنَى على دراسةٍ دقيقة لنقاط القوة والضعف في الأمة، وكذلك نقاطِ القوة والضعف عند خصومها.

ويعتبر العدوّ الصهيوني المحتلّ لفلسطين جسمًا غريبًا، يعيش بالغصب في بلادنا العربية والإسلامية، ويتّصف هذا العدو بكلّ ما يتّصف به الغرب الصليبي الأوروبي الأمريكي.

فالأوربيّون والأمريكيّون عنصريّون يكرهون غيرَهم من الأجناس، وكم تقاتلوا بدافع العنصرية، حتى أفنى بعضُهم بعضًا، والصهاينةُ كذلك عنصريّون متطرّفون في العنصرية، بل يروْنَ أنفسَهم الجنسَ الوحيد المستحقّ للسيادة والحياة دونَ غيرهم.

والصهاينة في فلسطين يمثّلون نقطةً متقدّمة علميًّا وتكنولوجيًّا في وسط العالمين العربي والإسلامي المحرومِ مِن العلم والتكنولوجيا رغمَ وفرة موارده، وكثرةِ ثرواته، وحسْنِ موقعه.

والصهاينة في فلسطين- رغمَ عنصريّتهم- فهُمْ فيما بينهم أكثرُ ديمقراطية وشورى من عالمنا العربي والإسلامي الذي يتميّز بالديكتاتورية والحكم الشمولي، وتزوير إرادة الشعوب، وعدم الشّفافية في التعاملات السياسية والاقتصادية بوجهٍ عام.

والغرب برُمّته يسعى للوحْدة، ويسارع في هدْم كلّ الحواجز بين شعوبِه ودولِه، ويعتبر ذلك مِن أهمّ مصادر قوّته، ونحن ما زلنا نتصارعُ على الحدود، وبين كلّ دولةٍ وجارتها مشكلةٌ حدودية وصراعٌ قبلي وعرقي، وهناك مَن يسعى في بقاءِ هذا الوضع، ويعيشُ على استمراره وتجذّره في أرجاء العالمين العربي والإسلامي.

ومِن هنا، بوسعنا أنْ نتبيّن ملامح خطةٍ استراتيجية طويلة الأجل تعدّنا إعدادًا جيدًا لخوض معركة التحرير الفاصلة مع عدوّنا وإنهاء احتلاله للأرض العربية في فلسطين، وإنهاءِ سيطرته علينا اقتصاديًّا وتكنولوجيًّا، وتقومُ هذه الاستراتيجية على العناصر الأربعة التالية:

١ـ التنمية الشاملة:

فالتبعيةُ الاقتصادية والتكنولوجية للدول المعادية للحقّ العربي في فلسطين تعتبرُ وسيلةَ ضغطٍ شديد على كافّة الشعوب العربية والإسلامية وأنظمة الحكم فيها لكي تتنازل عنْ هذا الحقّ.

ولذلك فإنّ القيادات المختارة ديمقراطيًّا سوف يكون مِن أوّل واجباتها إعدادُ الأمة لمعركة التحرير، وتحرير الأمة اقتصاديًّا، والاعتماد على القدرات الذاتية والثروات الوطنية في إحداث تنميةٍ شاملة في كلّ جوانب المجتمع العربي والإسلامي، بما في ذلك التنمية الاقتصادية والتنمية البشرية.

هذه التنمية التي تجعلنا لا نستوردُ رغيفًا مِن بلاد تُعادينا، وتحتلّ أراضينا وتقتطعُ مِن إرادتنا الوطنية لصالح العدو الصهيوني المحتلّ.

ولسوف تمكّننا هذه التنمية مِن الاستفادة بكلّ مُقدّراتنا ومواردنا، وتعظيم دخلِها من الموقع الفريد إلى المخزونِ البترولي الهائل إلى العمْق الحضاري والتاريخي.

نحن أمّةٌ متميّزة في الكثير من الجوانب، ولكنّ غياب الإدارة الديمقراطية هو الذي يعوق التقدّم في مجال التنمية، ويجعل الشعوبَ ذاتَها تعيش في حالةٍ من الإحباط والكآبة التي تعيقها عن العمل والإنتاج والإبداع.

٢. الاستقرارُ السياسي:

العالمُ العربي والإسلامي يعيش حالةً من القلق السياسي الناشئ عن وجود صراعٍ داخلي بين معظم الشعوب وحكوماتها وبين قطاعات الشعب بعضه وبعضٍ لأسبابٍ عِرقية وخلافات مذهبيّة، وهذا الصراع ناشئٌ عن تعطل المسيرة الديمقراطية، وغياب التعدّدية السياسية، وانسدادِ القنوات الطبيعية للتعبير عن الرأي، وهذه الحالةُ البائسة ناشئةٌ عن ضيق الأفق وعنْجَهيّة التفكير عند قلّة من المواطنين.

ومِن ناحية أخرى، فإنّ الشعوب قد نسيت حقوقَها الديمقراطية تقريبًا حتى إنّ الذين يتوجّهون لصناديق الاقتراع يعَدّون على الأصابع، وفي هذا المقام يقول أحدُ كبار المزوّرين: إنّ الأمة بعدم حُضورها للتصويت قد أعطتْ توكيلًا للحكومة القائمة أنْ تعلن النتيجة كما تريد. وهو قولٌ مُضحك حقًّا، ولكنْ مِن باب «شرُّ البليّة ما يُضحِك».

هذه هي مأساةُ العالم الثالث في باب الديمقراطية، وهذه نقطةُ الضعف الأساسية في حياتنا، وهي الثغرةُ التي أتاحت للصهاينة البقاءَ حتى اليوم في بلادنا.

إنّ اليوم الذي تحقّق فيه انتخابات حرّة للشعوب العربية والإسلامية لاختيار قادتها ومجالسها الشورية، هو اليومُ الذي ستبزغ فيه شمسُ الحرية على بلادنا كلّها، ومنها فلسطين. وهو اليومُ الذي سيتحقّق فيه الاستقرار السياسي للمجتمعات العربية والإسلامية.

مِن هذا المنطلق، وشعورًا بأهميّة الموضوع، فإنّني سوف أبقى أحلمُ بهذا اليوم الذي تنحازُ فيه القوى الحاكمة في العالمين العربي والإسلامي إلى الديمقراطية والحرية والمساواة، وتحدث التغيير المنشودَ بيدِها قبل أن تحدثَه الشعوب عُنوة وبتكاليفَ قوميةٍ باهظة، وعلى كلّ حاكمٍ أنْ يعلم أنّ فرصة الفوز بمكان مرموقٍ في التاريخ تسنحُ له طالما كان في الحكم، فإمّا أنْ يستخدم قوّته وقوة الحكم لإرساءِ صرح العدالة والديمقراطية فيفوزَ بمكان مرموقٍ في التاريخ، وإمّا أنْ ينحاز لمصلحتِه الخاصة وسلطته المطلقة، ويحجزَ مكانَه في صفوف الذين أدانهُم التاريخ.

٣ـ السعي نحو الوحدة العربية والإسلامية:

فالعالم اليومَ هو عالم الكياناتِ الكبيرة، والكياناتُ الكبيرة هي التي تحكُم العالم، وتستطيع أن تحقّق أهدافها على حساب الكياناتِ الصغيرة.

والكيانُ الكبير في عرف المتخصّصين اليوم هو تعدادُ العالم العربي تقريبًا.

فإذا أضفْنا لذلك مساحةَ العالم العربي، وتنوّع ثرواته وعمق الروابط اللغوية والدينية بين شعوبه؛ فإنّ أملَ الوحدة يعدّ قريبًا من التحقيق، كما أنّ أهميتها تعدّ أهمية بالغة لوجودنا، ولتحقيق النصرِ على عدوّنا.

لقد قالت الشعوبُ العربية كلمتَها في الوحدة، واختارتها طريقًا ومصيرًا، ولكنّ المعوّقين للوحْدة لم ينصاعوا لرغباتِ شعوبهم، ولم يسعوا خطوةً واحدة نحو تحقيق الحلم العربي القديم.

لقد نشرتْ تقارير كثيرة تقارنُ بين قوةِ العدو الصهيوني العسكرية ومجموع قوات الدول العربية أو دول الطّوق المحيطة بالأرض المحتلة، وهذه التقارير توضّح أنّ الدول العربية مجتمعة تمتلكُ قوةً متفوّقة على العدو الصهيوني. ولكنّ السؤال الذي نطرحه الآن: متى تجتمعُ هذه الدول، وتقرّر المضي في مسيرة الوحدة، وتبدأ خطواتها الأولى؟

إنّ الظرف التاريخي الذي تمرُّ به أمتُنا العربية والإسلامية يجعل الوحدةَ فريضةً على شعوبها، وضرورةً للبقاء على خارطة العالم المعاصر.

وبقدر تقدّمنا كشعوبٍ وحكومات في مسيرةِ الوحدة بقدرِ ما نقتربُ من يوم التحرير، ونقطعُ الشوط نحو تحقيق حلمِ النّصر وتحرير فلسطين.

٤ـ سدّ الفجوةِ التكنولوجية:

تتّضح الفجوة التكنولوجية بيننا وبين عدوّنا الصهيوني في صورٍ شتى، من هذه الصورِ اليومية صورةُ الصبي الفلسطيني الذي يمسك بيدِه الحجر، ويُلقيه على العدو، أو يستخدمُ المقلاعَ ليرسل حجرَه مسافة أبعد، بينما يطارده جنودُ الاحتلال وهُمْ مسلّحون بأحدثِ الأسلحة، ويركبون السيارات ويستخدمونَ أجهزة الاتصال المزوّدة بالهوائيات، وإذا تطلّب الأمر أكثرَ من ذلك يستخدمون الطائراتِ

الهليكوبتر في قصفِ الناس وبيوتهم، وليس على الأطفال لومٌ في ذلك، ولكنّ اللّومَ كلّه على القادة والكبار الذين أوصلوا أمّتهم إلى هذا الوضع المزري.

والصورةُ الأخرى التي توضّح هذه الفجوة التكنولوجية هي تمكّن العدو من إطلاقِ القمر الصناعي الخامس (أفق ٥) للتجسّس علينا، ورصْد حركتنا وحركةِ جيوشنا، بينما تعتمدُ بلاد العرب في جميع المعلومات على المخبرين حتّى اليوم.

والصورةُ الثالثة هي امتلاكُ عدوّنا للسّلاح النووي الذي بات يهدّد كلّ بلادِنا المحيطة بالعدو، بينما تخلّفت بلادنا في الخمسين سنة الماضية في هذا المجال، بالرغم من امتلاكها بنيةً أساسية من العلماء والخبرة في المجال النووي.

وإذا أردنا أن نتعرّف على مزيدٍ من البيانات لتوضيح الفجوة التكنولوجية الواسعة بين العدوّ الصهيوني وبين البلاد العربية والإسلامية المحيطة به؛ فسوفَ نجدُ أمامَنا المعلومات الآتية:

اختار الصهاينةُ أولَ رئيس لهم على أرضنا التي اغتصبوها عالمًا من علماء الذّرة هو حاييم وايزمان في عام ١٩٤٨، وفي خطاب تنْصيبه قال له بن جوريون أولُ رئيس وزراء: لقد اخترناكَ عنْ قصدٍ ليكون حلّ اهتمام الدولة الصهيونية موجّه إلى البحث العلمي والتكنولوجيا، وخاصّة في مجال السلاح النّووي؛ لأنّ هذا وحدَه الذي يحْمينا من بحر الشعوب العربية التي تحيطُ بنا من كلّ ناحية.

وتنفقُ دولةُ الصهيونية على البحث العلمي حسبَ التقارير العالمية ما يوازي ٢٥٪ من دخلها القومي، بينما مجموع ما تنفقُه كلّ الدول العربية حسب أحسنِ التقارير ٢,٠٪ من دخلها القومي.

للقائلين بأنّ الصهيونية انتصرتْ علينا؛ لأنهم أهلُ عقيدة ونحن تركْنا العقيدة نقول إنّ انتصار عدوّنا علينا طيلة قرنٍ مضى راجعٌ بالدرجة الأولى لامْتلاك أعداء أمّتنا قدرةً علمية وتكنولوجية متفوّقة على ما كان في أيدينا من سلاح العلم، وقد انتقلتْ هذه القدرةُ العلمية لعدونا الصهيوني متمثّلة في الكمّ الهائل من العلماء الذين اجتذبتهم الصهيونية لمشروعها التوسعي، وكذلك لكثرةِ المساعدات العلميّة التي تدفّقت على الصهاينة من أوروبا وأمريكا وروسيا.

إنّ المسلمين لم يتركوا دينَهم لدرجة اعتبار الصهاينة أكثرَ من المؤمنين تديّنًا.

فأمّتنا أعلى مِن الصهاينة دينًا، وأرقى منهم خلقًا مهما بلغَ ضعفُها في هذا الجانب، ولكنّ الحقيقة التي لا مِراء فيها أنّ الصهاينة تفوّقوا علينا في مجال البحث العلمي والتكنولوجيا، وتلك نقطةُ ضعفنا الأساسية في مواجَهتهم.

وممّا لا شكّ فيه أنّنا فرّطنا في ديننا، ولكنْ من ناحية حضّه على التفوّق العلمي وإتقانِ العمل وامتلاك القوة والإعداد للحرب، وليس فقط في مجال الصلاة والذكر والتّسبيح كما يحلو للبعض أنْ يفهمنا.

ومِن هنا، فإنّ سدّ الفجوة التكنولوجية بين العالمين العربي والإسلامي، وخاصّة دول الطّوق هي الدّعامة الأساسية لاستراتيجية التحرير الكامل لفلسطين، ومِن المعلوم أنّ تطوير البحوث العلمية والتكنولوجية يعدّ مِن أعمال الإدارة العليا في الدّول، وهو مِن أهمّ أعمال الحكومات التي تحرصُ على مصلحة أوطانها.

ويتحكّم في هذا التطوير مدى قناعةِ الحكومات بأهمّية العلم والعلماء، ومدى ما تملكُه الحكومات نفسُها من ثقافة علمية مواكبة للعصر الذي تعيشه، ويعدّ التوجّه السياسي لإحداث هذا التطوير حجرَ الزاوية فيه، والدافع الأوّل لتحقيقه.

ومن خلال تجربتنا السابقة في الصّراع مع العدو الصهيوني نستطيع أنْ نقول بكلّ تأكيد: إنّ التفوّق التكنولوجي كان فاعلًا في كلّ المعارك التي خُضناها في مواجهتِه، وخبراءُ الحرب والعسكرية يعرفونَ ذلك ويقرّونه بغير جدلٍ أو إنكار، وعلى كلّ المخلصين لقضية التحرير الكامل لكلّ فلسطين أنْ يقدّموا لمعركتهم الفاصلة مع عدوّهم جهدًا علميًّا وبحثيًّا حقيقيًّا يمكّنهم من التفوّق العلمي على العدوّ المحتلّ كمقدّمة ضرورية لبلوغ مرحلةِ النصر الكامل، وامتلاك القدرة التي تدمّر قوةَ العدو وجعله غيرَ قادر على العودة لاحتلال أرضنا، أو التفكير في ذلك.

وليس هذا مجالَ التفصيل في خطّة شاملة لسدّ الفجوة التكنولوجية بيننا وبين العدو، بقدر ما هو مجالُ التذكير بما يلزمنا إعدادُه على المدى البعيد لضمان النّصر في معركة التحرير الفاصلة التي ستقع حتمًا بيننا وبين العدوّ الصهيوني المحتلّ.